سيأتي أحدهم(*)

(*) نشرت في مجلة ((الرواد))- العدد الاول- عام ٢٠٠٠- بغداد

الشخصيات

- آمنة: سيدة في العقد السادس
- سمر: جارتها، في مثل عمرها
- سمير: حفيد سمر. في الثانية عشرة
- فرج: حمال في منتصف العقد الخامس
- الام: سيدة- في العقد الخامس
- الابن: ابنها_ معلم في العشرين
- الشاب: دون الثلاثين

إشارة:

تشكلت الخطوط الأولى لهذه المسرحية في ذهني؟ وأنا اقرأ قصـــة ((منزل للبيع)) بيد أني لم أتوقف عند معطياتها ولم أتقيد بها. ولمن يهمه الأمر أشير إلى أن القصة منشـــورة فـــي مجلـــة ((الثقافـــة الأجنبية)) العدد ٣/ ٥_ ١٩٩٥_ بغداد تأليف بوريس ايكيمـــوف. ترجمة: ناطق خلوصي

[أوائل الشتاء، نهار مشمس. الوقت قبيل الظهيرة، منزلان ريفيان يتسـمان بالنظافة، وقدر من الجمال، لاسيما الأول، الذي يحتل ثلث المسرح. تظـهر منـه غرفتان أماميتان بنوافذ عريضة، يمكن عبرها متابعة ما يجري في الداخل، يفصل بينهما باب المدخل بعمق مناسب، تنهض على جانبيه دكتان مفروشتان تصلحـان للجلوس.

من البيت الثاني، يظهر جزء صغير فقط.

امام البيتين فسحة مشتركة من الارض؟، ينصفها سياج واطيء، تتوسـطه فتحة للعبور، بضعة حبال معلقة في فضاء المسرح.

من البيت الاول تخرج (امنة) وهي سيدة في الستين، تسحب كيسـاً مليئـا للخضر (كرفس، رشاد، بصل.. الخ) تنادي على جارتها في البيت الثاني..]

امنة: سمر.. سمر.. هلا ساعدتني يا اختي!

سمر: حالاً.. حالا.. يا آمنة (تخرج.. مقبلة نحوها. وهي سيدة في مثل عمرها).

امنة: (تتقابلان على حمل الكيس) اما زال سمير.. يكتب..؟

سمر: ما زال يكتب ويشطب. بعيد ويصقل. كانه مقبل على مسابقة عالمية..

امنة: يا عيني!!

سمر: حملك اليوم ثقيل يا امنة.

آمنة: لم احصد طيلة الايام الماضية. الامطار احالت الحقل إلـى بركـة. الازرق

ليس بعيدا. لقد ربطته قرب الساقية. قولي يـــا الله.. (تحمـــلان الكيــس. تغيبان هنيهة تعودان) سيتأخر الولد عن المدرسة (تنادي) ســـمير.. الــم تنته يا ولدي؟

سمير: (صوته من الداخل) لحظة.. ياجدتي.. لحظة. ريثما يجف الحبر.

سمر: هو هكذا.. بطيء في كل شيء...

آمنة: بل هو، طال عمره، متأن في عمله ودقيق (ثم) دقـــائق..اغـــير ملابســـي (تدخل بيتها، سمر تمسح حبال الغسيل، يخرج سمير وهـــو صبـــي فـــي الثانية عشرة من العمر يحمل مجموعة اوراق، يقفز من فوق السياج).

سمير: (يعرض الاورق امام جدته) انظري جدتي.. انظري.. اليس خطي جميلا؟

سمر: الله.!! جميل.. جميل جداً.

سمير: طبعاً.. و.. وفق قواعد الخط، بكل دقة واتقان. انا خطاط وفنان.. خطـــاط وفنان.. كما يقول المعلم..

سمر: خطاط وفنان (ثم بحزن) ولكن لو اوليت دروسك بعض الاهتمام ايضا.

سمير: لست سيئاً في دروسي صحيح اني لست متفوقاً جدا. ولكني لست رديئـــا.. جدا.. ايضا درجاتي فوق الستين.. وفي اللغة.. سبعون.

سمر: والرياضيات؟

سمير: لا احبها، ياجدتي. تسبب لي الصداع.. اموت منها..

سمر: غلط، يا ولدي، غلط، من لا يحب شيئاً لا يتعلمه..

سمير: (مغيرا الحديث) اين الجدة امنة؟ الا ترى.. ما كتبت لها..

سمر: سترى.. سترى، ستعجب به، فانت خطاط ماهر..

سمير: صحيح جدتي؟ صحيح؟.. هل انا كذلك؟

سمر: اليس ذلك ما تردده ليل نهار؟ (تضحك) ما ادراني انا..!

سمير: وجدتي امنة ايضا.. لا تعرف شيئا عن الخط وفنونه.. مع انها تشجعني دائماً.

سمر: هي.. تحبكَ..

سمير: وانا ايضا احبها.. احبها كثيرا (ثم) ولكني صرت.. لا احبها كثيرا... جدا.

سمر: ولماذا يا ولدي؟ لماذا لم تعد تحبها؟

سمير: لانها تفارقنا.. وانا اريدها ان لا تفارقني..

سمر: في الحياة أشياء كثيرة تحدث.. ونحن لا نريدها- ينبغي ان نعود أنفسنا على تحملها.

سمير: ولكن ما معنى ذهابها إلى المدينة؟ هل المدينة احسن منا؟

سمر: شرعت تضيق بالحياة هنا، ولا سيما بعد وفاة زوجها ورحيل ابنها..

سمير: غلط.. اكبر غلط- ما كان ينبغي أن يتركها ابنها.. ابنها... ابد.. أنا.. أنا.. لا أفارقك أبدا.. مهما كبرت.. حتى إذا صرت معلماً.. لن أتركك أبدا..

سمر: آه.. حبيبي (تحتضنه) أخشى ما أخشاه.. أن اضطر أنا إلى تركك ذات يوم.

سمير: لا.. لا تفعلي يا جدتي.. أرجوك.. (يلتصق بها).

سمر: (كمن تخاطب نفسها) من يدري ماذا يخفي القدر من مفاجآت. لقد أخذت السنوات تقوض بنائي.. وصحتي لم تعد.. على ما يرام..

سمير: ولكن أين تذهبين؟ هل لك أنت الأخرى ابن في المدينة. تتركيني من اجله.

سمر: لا.. يا ولدي.. لا- ليس لي سواك.. لم يعد لي أحد سواك.. وسوى

جدك.

سمير: لن ادعك تذهبين إلى أي مكان.. اتبعك أينما تذهبين..

سمر: أوه.. لا.. لا.. يا حبيبي لا.. لا تقل ذلك أرجوك.. أنت يجب أن تبقى يجب أن تحيا وتعيش.. طويلاً.. طويلاً.. إلى.. إلى... ما.. شاء الله.

سمير: ولكن كيف؟ كيف أعيش؟ كيف أحيا؟ إذا كان الكل يفارقني. أنت.. والجدة آمنة..و..

سمر: آه.. يا ولدي الحبيب، تعسا لي. قطع الله لساني الذي قادني إلى هذا الحديث المؤلم. لا.. يا ولدي.. لا.. لا.. أحد يفارقك.. لن أفارقك.. ما دمت حية... أبدا..أبدا..

سمير: والجدة آمنة ايضا.. يجب ان لا تفارقنا

سمر: الجدة آمنة، حالها مختلف، أن لها ابناً في المدينة، وهي ترغب في العيش معه..

لا يحق لنا أن نقف أمام رغبات أحد. حتى وان كان ذلك يؤلمنا.

سمير: ولكن..

سمر: نحن نحب آمنة.. وينبغي أن نرجو لها كل ما سيسعدها.. (بحسرة) هكذا هي الدنيا.. يا ولدي، لقاء.. وفراق.. وفراق..

سمير: ولقاء؟ ولقاء أيضا؟ أليس كذلك.. يا جدتي؟

سمر: إذا شاء الله.. يا ولدي.. إذا شاء الله.

سمير: إذن سألتقي ذات يوم.. بأمي.. وأبي..(تهم أن تتكلم. يختنق صوتها بالدموع) جدتي.. أتبكين؟ لماذا تبكين؟ هل فارقاني إلى الأبد.. كما يقول الأولاد؟ لن التقي بهما.. أبدا.. أبدا..

سمر: اه.. ولدي... ارحمني.. ارحمني..

سمير: حسنا.. حسنا.. لا تبكي.. يا جدتي.. فقط.. لا تفارقيني.. أنت لا تفارقيني أنا.. أنا.. لا أطيق.. فراقاً.. جديدا...

سمر: كفاك.. يا سمير.. كفاك.. أرجوك.. لا أحد.. يفارقك.. لا أحد..

آمنة: (داخلة بملابس أخرى) عفوا.. لقد تأخرت.. ما هذا يا سمر؟ ما الذي يجري؟ أتبكين؟ لماذا..؟ ماذا حدث؟

سمير: بسببك يا جدتي.. بسببك...

آمنة: بسببي؟ بسببي انا.. (تلطم وجهها) لماذا؟ ماذا فعلت..

سمير: بسببك.. وبسبب آبي وامي.. وكل الذين يفارقوننا ولا يرجعون. انا ايضاً.. سوف ابكي.. اذا..

آمنة: يا حبيبي. لا. انت بالذات لا ينبغي ان تبكي وعسى ان لا تبكي ابد. ان قلبي يتمزق. اذ ارى دمعة تسفحها من اجلي..

سمير: (يتمسح بها) اذن لا تمزقي قلبك.. أقول.. أقول.. لا تسافري.. كي لا يتمزق قلبك..

آمنة: (بحزن) هو يتمزق في كل الاحوال. ان بقيت هنا تمزق علي من هناك. وان رحلت تمزق علي من هنا.. اه.. اه.. اه.. يا عذابي..

سمر: أعانك الله على ما فيه الخير.. يا أختي (ثم) سمير.. هل نسيت أوراقك.. ألا تريها لجدتك (لامنة) لقد كتبها.. بأجمل خط..

امنة: (تتأملها) الله! سلمت اناملك.. تعال نلصق واحدة منها على الباب.

سمر: (بصورة عفوية) لو تدعين ذلك.. لما بعد عودتنا من السوق.

امنة: (تتوقف) ها؟.. ولماذا يا اختي؟

سمر: (ترتبك لا يأتيها الجواب سريعاً) آ.. آ.. آ.. اخشى ان يأتي احدهم ولا يرى احداً.

امنة: ها؟ ليكن.. ليكن كما تشاءين.

سمير: بينما تبيعان انتما الخضر.. املأ انا الشوارع والمحلات.. بها

آمنة: بارك الله فيك.. هيا.. هيا.. بنا...

سمير: جدتي آمنة.. هل تسمحين لي بركوب الازرق..

آمنة: طبعاً، يا ولدي طبعاً.. وسأجلسك بنفسي على ظهره..

سمر: حمل الحيوان اليوم ثقيل.. واخشى.

امنة: الازرق اقوى من الحصان.. ولن يضيره هذا العصفور على ظهره (يخرجون)

سمير: (صوته من خارج المسرح) هه جا يا ازرق هه جا. هيا يا حصان هيا (وضحكات من المرأتين.. ثم تبتعد الاصوات.. حتى تتلاشى).

(من بعيد يقبل رجل على مشارف السبعين يجر بنفسه عربة من النوع الذي تجره الدواب عادة، بصعوبة بالغة، فوقها حمل مغطى. يتوقف امام بيت امنة، يسترد انفاسه متعباً، رازحاً تحت هم ثقيل يطرق الباب. لا جواب يعيد الطرق. لا جواب..).

الرجل: امنة.. امنة.. هلا اعرتني الحمار بعض الوقت. لقد انهارت قواي. لست قادراً على جر العربة (يجلس على الدكة، يلف سيجارة) امنة.. ياآمنة. اين انت يا ابنة العم (ينهض، يعبر السياج) اتكون عند سمر (يطرق الباب، لا جواب) ما هذا؟ لا أحد هنا.. أيضا؟ أين ذهب الجميع؟ انه حظكَ.. حظك الأسود يا فرج... لو ذهبت إلى الشط... لوجدته يابساً وعدت ظمآنا.. (يعود نحو عربته، يرى على الأرض، مسحاة ومعولاً. يلتقطها يضعها فوق العربة) هيا.. هيا.. سأجرك بنفسي بدل الأزرق.. ذلك قدري.. لأر ماذا بوسعي أن افعل.. لا احسب ان بوسعي فعل الكثير.. ولكن يتوجب

علي ان أحاول.. وعسى الله ان يرأف بحالي ويبعث الي.. مـن يسـاعدني

(يسحب العربة بعناء يواصل سيره، يختفي خلف البيت)

(بعد مدة مناسبة، تعود المرأتان حاملتين ما تبضعتـا.. وهمـا تواصـلان حديثهما).

آمنة: ليلة أمس وفي لحظة تأمل لمجمل حياتي، بعد وفاة زوجي ورحيـل ابنـي انبثقت الفكرة في ذهني.. ها قد بلغت الستين يا آمنة.. هد العمل في الحقل قواك.. وقد آن لك أن تركني إلى الراحة، وتقضي بقية أيامك إلـى جـانب ابنك، في البداية رددتها عن نفسي.. ولكنها ظلـت تلـح علـي.. فرحـت أقاومها.. غير أنها لم تكف عني.. مع تكثف احساسي بالوحدة والفـراغ.. ضعفت أمامها.. واستسلمت لها ووجدتني مع الصباح الباكر أتخذ قـراري ببيع البيت والرحيل.. إلى المدينة.

سمر: هكذا.. بهذه السرعة، دون تصميم.. سابق.. ولا حتى تخطيط..

آمنة: تصميم؟ تخطيط؟ لم؟ هل انا ذاهبة إلى القمر؟ انا اذهب إلى ولدي..

سمر: ومع هذا.. من المناسب والأفضل.. ان..

امنة: (تقاطعها) الولد هناك بحاجة الي.. وكذلك الطفلة.. تعرفين انهما موظفـان.. وليس ثمة من يعتني بالصغيرة.

سمر: أليست حماته معهما- في البيت.

آمنة: من؟ ناهدة؟ تلك المرأة المتصابية؟ ان النهار كله لا يكفيها للعناية بنفسـها. هل تجد وقتاً للعناية بحفيدتي.؟ لا.. لا..لا علي.. ان اعتني بها بنفسي..

سمر: نحن نرجو لك السعادة أينما تكونين.. وان كان فراقك يعز علينـا وسـوف يؤلمنا.. ويترك في قلوبنا.. فراغاً.. كبيراً.. ولكن تهمنا.. سعادتك بالدرجـة الاولى غير أني يا آمنة.. (تسكت).

امنة: ماذا هناك؟ هل من امر؟ قولي.. لا تترددي.. يا سمر..

سمر: يا أختي يا آمنة.. أخشى ان لا يطيقوك.. هناك... ويضيقوا بك.

امنة: من؟ من لا يطيقني؟ ابني؟.. ؟ ابني لا يطيقني.. ويضيق بي؟ بي انا امه؟ مستحيل مستحيل انت واهمة.. اسمحي لي اقل لك انك واهمة..

سمر: ارجو من كل قلبي ان اكون كذلك..

امنة: لم تقولين ذلك يا سمر؟ هل تعرفين شيئاً؟ هل سمعت شيئاً؟

سمر: لا. لا.. وحقك يا امنة. لو كنت قد عرفت او سمعت.. هل كنت اخفي عنك. ولكن اولاد هذا الزمان نزقون طائشون لا يطيقون احدا.. يضجرون من انوفهم.

امنة: كمال.. ليس من ذلك النوع. كمولي وردة حنون ليس مثل غيره..

سمر: ولكن كمولي الحنون هذا.. لم يزرك منذ وفاة زوجك، مرة واحدة.

امنة: انها الوظيفة يا أختي، الوظيفة شديدة، لا يمنحونه.. اجازة..

سمر: سحقاً لوظيفة تمنع الابن من زيارة امه طيلة خمس سنوات.

امنة: ما العمل.. يا أختي.. الحكومة الحكومة.. صعبة.. قاسية...

سمر: الحكومة.. ام هو الذي...

آمنة: الحكومة... الحكومة (ثم) وقد خابرني بنفسه واوضح كل شيء (سمر تبدي علامة عدم اقتناع) ما الذي تريدين ان تقولي يا أختي... يا سمر.. هل اقضي حياتي كلها بعيدة عن ولدي؟

سمر: لا.. لا... يا آمنة.. كل ما أريد ان اقوله.. امنحي نفسك بعض الوقت.. فكري بروية، قبلما..

امنة: أرجوك.. اعرف ان حبك لي وحرصك علي.. يحملانك على بعض الظنون.. او الشكوك.. بكمال و..

سمر: انا؟

امنة: ولكن اطمئني يا أختي.. اطمئني.. انه لا يستطيع منعي من زيارتك.. اعدك ان ازورك كل يوم جمعة، حين يكون كمال وزوجته في البيت. واليوم الذي لا استطيع زيارتك لاي سبب كان، اخابرك ولهذا السبب ساترك لك التليفون.. لا اعطيه لاي كان.. تاكدي. سازورك واخابرك ولا انساك. لا انساك ابدا.. لا انت ولا زوجك الطيب ولا سموري.. الخطاط الحباب..

سمر: اعرف.. يا آمنة.. اعرف- كم انت وفية ومخلصة.. ان علاقة عمرها نصف قرن من الزمن.. من العشرة الطيبة والمحبة الصافية. لا يمكن لاي منا.. ان تنساها.

امنة: اذن ماذا هناك.. يا سمر.. يا أختي.. ماذا هناك؟ قولي.. بصراحة..

سمر: لا ادري لماذا.. انقبضت روحي للفكرة.. شرعت اتوجس خيفة.. من.. من (ثم منفجرة) يا آمنة.. ان قلبي يحدثني.

امنة: (تقاطعها بسرعة وانفعال) لا.. ارجوك.. لا.. دعي حديث قلبك.. جانباً. أنا اخشاه.. أخشاه بكل جوانحي.. (بحزن) ما زلت أتذكر، قبل عشر سنوات، حين تعلقت بابنك وزوجته.. تمنعينهما من السفر.. وتقولين ان قلبي يحدثني..

سمر: ولكنهما لم يصغيا إلى (تدمع عيناها) سافرا.. ولم يعودا.. آه.. آه

آمنة: احمدي ربك انك خطفت منهما سمير.. فأنقذته مما حل بهما..

سمر: الله.. هو الذي أنقذه..

آمنة: آمنت بالله.. ولكن لكل شيء سبباً وقد كنت السبب في نجاته.

سمر: وكان يمكن ان اكون سبباً في نجاتهما ايضا. لو اصغيا لي.. اه ولكن ما الجدوى من التحسر على ما فات.. والندم على ما قد وقع (تمسح دموعها)

امنة.. لماذا لا تذهبين إلى ابنك في زيارة مؤقتة. تمكثين عنـــده.. بضعـــة ايام.. ثم يتبين الامر بصورة نهائية..

امنة: لا.. يا سمر.. لا.. لقد عزمت.. فلا تثبطي عزمي.. ارجوك..

سمر: ليكن.. ليكن.. وعسى الله ان يحقق لك ما تريدين. (يدخل سمير).

سمير: (بمرح) لقد ألصقت الإعلان في كل مكان.. على طول الطريق..

آمنة: أرجو أن لا تكون قد نسيت حصة البيت.

سمير: بل أبقيت اكثر من خمس نسخ.. هل أستطيع الاحتفاظ ببعضها يا جدتي.

سمر: وماذا تفعل بها؟ هل تلصقها على لوحة الإعلانات في المدرسة..

سمير: لا.. اعرضها على مدرس الخط..

امنة: لك ذلك يا ولدي.. وسيفرح بها ويثني عليك كل الثناء.. (ينهمكان في لصـق الإعلان على الباب) الله.. جميـــل.. جميـل جـدا.. سـينجذب النـــاس.. زرافات... زرافات..

سمير: (يقرأ مشيراً على الكلمات بإصبعه) دار للبيع تتوفـــر فيــها كــل أســباب الراحة..

آمنة: رائع.. رائع.. يا سمير.. ولكن قل لي.. أسباب الراحة هذه من أين جئـــت بها.؟

سمير: (ضاحكاً) من إعلان وجدته على باب فندق في كركوك..

سمر: تعال يا سمير تعال يا ولدي.. تناول لقمة.. قبل ان تذهب إلى المدرســـة.. وتأخذ إلى جدك غداءه..

آمنة: هيا.. يا ولدي.. هيا.. وألا تأخرت.. (يدخلان البيت. ترنو خلفهما بمحبـــة) ليحفظكما الله.. من كل مكروه (تدخل بيتها. تعود حاملـــة عــدة حياكـــة.. ونظارة طبية. تجلس على الدكة.. تحت أشعة الشمس. تحوك) قاسية هـــي

الوحدة يا أختي يا سمر. قاسية ووحشية إلى حد اللامعقول. من المستحيل أن أجعلك تدركين مدى وحشيتها ولا إنسانيتها. فأنت والحمد لله لك زوجك يملأ فراغ لياليك. ولك عصفورك يؤنسك في النهار. قرت بهما عيناك. وأنا وحدي، لا أحد لي. وحدي اسقي حقل الخضر، أنظفه.. ازرع.. احصد.. ابيع المحصولات، على الأرصفة.. على البيوت على أصحاب الدكاكين... كل ذلك جيد.. لست شاكية منه ولا متذمرة. بل على العكس.. فأنه يريحني.. إذ يملأ فراغي ويمنحني ما يوفر لي عيشاً كريماً.. ولكنه بمجموعه.. لا يستغرق سوى نصف النهار.. ويبقى ثمة النصف الآخر.. و.. والليل.. ليل الشتاء الطويل الذي يبدو بلا نهاية، استيقظ، أو بالأحرى أفز من النوم، في منتصفه. وكل عضو من أعضاء جسمي يئن. فقد عصره ألم المفاصل والعظام في معصرته الرهيبة مثل مريض أجريت له عملية.. جراحية كبرى. فنام بالرغم من أوجاعه، بسحر المخدر. ثم.. زال عنه تأثيره. فتدفقت دفعة واحدة، كل الآلام والأوجاع التي كانت مغيبة حتى ذلك الوقت.. تنهشه.. تمزقه وشرع ينزف دما غير مرئي.. يسيل من جروح مقشرة.. وبات من المستحيل أن يجد إلى الراحة سبيلا.. فالنوم قد جافاه والمخدر قد فارقه.. فغدا فريسة مفتتة بين أنياب الألم ومخالبه الدامية.. لا يجد دواءً يخفف عنه ولا أحدا.. يهدئه.. آه.. (ترفع نظارتها. تمسح دموعها) تلك حالي.. يا سمر..بعض حالي.. يا أختي.. فلا تلوميني.. كل ليلة تحاصرني أفكار مجنونة، غريبة عجيبة، لا ادري من اين تنبثق.. تتقاذفني أمواجها من شاطئ إلى شاطئ.. تصفعني الشواطئ بلا رحمة، تلطمني السواحل بلا شفقة. مثل سفينة، تائهة، تمزقت أشرعتها وغادرها ربانها.. وتركت وحيدة، تركلها الزوابع.. والاعاصير..

دون أن تقضي عليها.. وتخلصها من هذا التردد المروع بين ضفتي الموت والحياة. اقبع وحدي فوق صفحة البحر. اقصد فـــوق الســـرير، الصلــب، البارد، يفترسني البرد وينخرني الخوف، وفي عملية بحـــث وهمـــي عــن الدفء الإنساني والامان الروحي.. استحضر كل أحبتي ومعارفي الاقربيــن والأبعدين انفخ الحياة في زوجي واوقظه من رقاده الابدي في القبر. اسرق ابني من نومه الهانيء في احضان زوجته. استحضرك انت. اجل يا سمر.. يارفيقة عمري.. اخرجك من دفء احلامك. وحتى فـــرج.. لا ينجـــو مـــن ازعاجي واقلاقي راحته.. اه لكم يكون الانسان الوحيـــد انانيـــا. واحـــادي التفكير. (تمسح دمعتها) وتطول سلسلة الاحبة والمعارف. ولكنها تنتـــهي.. سرعان ما تنتهي، بالرغم من طولها.. فأي واحد منكم لا يمكـــث عنـــدي سوى دقائق. لا ينقذني من ليل وحدتي الموحش الا هنيـــهات ثـــم يغيــب ويتركني لفراغ الليل الطويل، المزروع بـــالقلق والارق. وســـيول الافكـــار المتدفقة. والتهويمات الجارفة.. (تمسح دموعها) لا تلوميني.. يا ســـمر.. اذ الوذ بابني.. فلم يعد لي سواه يخلصني.. مما اعـــاني.. اعـــرف انـــه لا يتفرغ لي. وقد لا اتمكن من رؤيته والجلوس معه ألا لماما. ولكن يكفي ان اعيش في بيت تتردد فيه أنفاس ابني وكنتي وحفيدتي.. أنها.. إنها هـــواء حياتي وذلك حسبي. (تتوقف كمن تواجه هاجسا داخليا) و.. ولكن ماذا لـــو صدقت ظنون سمر.. وضاقوا ذرعا بي. هناك. هو او زوجته او حماتـــه.. لا سيما بعدما أكون قد أحرقت كل السفن ورائي كما يقال.. اه... يا الهي.. ان ذلك لقمين بان أموت ألف مرة.. قبل ان أواجهة مرة واحـــدة (وقفـــة) لعله يحسن بي أن اذهب إليهم أولا امكث لديهم بعض الوقت، كمـــا تقـــول سمر، أتحسس الحالة.. أجس النبض.. قبل ان.. لا.. لا.. لا أطيق ســـوء

معاملتهم لي.. ولا.. حتى استقبالهم لي ببرود.. او.. عدم احتفائهم كما ينبغي. انه لاهون علي ان اقتل نفسي من ان أتلقى إهانة كتلك واسكت. (تفكر) اجل.. اجل.. من الأفضل ان أتأكد.. من كل شيء قبل أن أخطو أية خطوة (تضع عدة الحياكة ونظارتها جانبا تدخل غرفتها يمكن رؤيتها من خلال النافذة.. وهي ترفع سماعة التلفون (يخرج سمير من البيت الثاني. حاملا على ظهره حقيبة مدرسية. يقضم لفة طعامه يقفز السياج. يقف قبالة الاعلان. يتأمله..).

سمير: ما كان ينبغي ان اكتبه بهذا القدر من الجمال. كي.. لا يجذب اليه احدا. بل.. بل.. ما كان ينبغي ان اكتبه اصلا.. حتى لا يأتي احد.. ويحرمنا.. منها. ولكنني احب جدتي.. امنة.. ولا استطيع ان ارفض لها طلبا.. ابدا (يستدير ليذهب. تخرج سمر من البيت.. حاملة قدرا صغيرة..).

سمر: سمير.. ما هذا يا سمير؟ الا تأخذ الطعام.. لجدك؟

سمير: (يعود مسرعاً) نسيت جدتي.. لقد نسيت.. (ياخذها منها).

سمر: عد من المدرسة إلى البيت مباشرة.. لا تشغل نفسك هنا وهناك.. لتأخذ العشاء قبل حلول الظلام.

سمير: العشاء ايضا؟ الا يعود إلى البيت الليلة..

سمر: الليلة نوبة خفارته في المعمل.. لا تنس يا ولدي والا غضب عليك جدك.

سمير: حسنا جدتي.. حسنا (يستدير ليغادر. يتوقف امام الاعلان) اليس جميلا..

سمر: (مداعبة) ما هو؟

سمير: الخط.. خطي..

سمر: جميل.. جميل جداً.. (ثم) الم اقل لك ذلك؟

سمير: بلى.. بلى.. ولكني نسيت.. أنا كثير النسيان..

سمر: نسيت حقاً؟ ام انك لا تشبع من الإطراء (سمير يضحك) ولكن يبقـــى ثمـــة الأجمل.

سمير: الأجمل؟ اجمل من خطي؟ مستحيل....

سمر: ولماذا مستحيل؟ الست اجمل من خطك (يضحك) تعال.. تعال.. ايها الخطـاط الجميل.. اعطني قبلة.. قبل ان تذهب..

سمير: اسرعي يا جدتي. ليس لدي الكثير من الوقت اضيعه.. في القبل (يضحكان في الغرفة تضع امنة السماعة ترفع ثوبها إلى عينها).

سمر: والان طر ايها العصفور إلى عشك قبل ان يدق الجرس. (تعود.. تتوقـــف) سمير هل نزعت ملابسك الوسخة؟

سمير: (صوته من الخارج) اجل.. يا جدتي.. تركتها فوق الفراش.

امنة: (خارجة دامعة العينين.. في حالة بائسة) ســ... سمـــ... سمر...

سمر: (تتوقف) امنة؟ امنة؟ (تلتفت نحوها) اه.. يا الهي! ماذا بك؟ ماذا جرى لك؟ (تسرع نحوها قافزة فوق السياج) ما الذي حدث.. اخبريني..

امنة: و.. و.. مثلما توقعت (تختنق بالدموع) تماماً.. مثلما.. توقعت..

سمر: مثلما توقعت؟ توقعت ماذا؟

امنة: إنه لا يريدني.. وو.. ولدي الوحيد.. لا يريدني..

سمر: آه.. تعساً لي.. تعساً وسحقاً.. لي..

آمنة: لك؟ وما ذنبك انت؟

سمر: لأني بومة.. امرأة مشؤومة.. كلي شؤم. ما توقعت سوءاً الا.. وقع..

امنة: بل أنت امرأة صالحة.. بعيدة النظر.. ماذا كان يحدث لي لـــو بعــت البيــت وتوجهت إلى بيتي الثاني.ز بيت ولدي الوحيد، مفعمة بامل اللقاء معـــه. محلقة باجنحة الشوق واللهفة لاحتضان حفيدتي ومعانقة كنتي.. فاذا بـــه

يغلق الباب بوجهي و.. (تخفي وجهها باكية)

سمر: بيتك الثاني هو بيتي انا.. يا آمنة.. بل ان مسكنك هو قلبـي وروحـي يـا اختي (تعانقها.. تقبلها)

امنة: (تبكي) انه.. انه.. ينصحني.. بالبقاء.. هنا.

سمر: (بفرح) عظيم.. اذن لن تبيعي البيت.

امنة: بل.. ابيعه..

سمر: (مصعوقة) نـ... نعم..؟

امنة: كما سمعت يا اختي.. ابيعه.. يتحتم علي ان ابيعه.

سمر: كيف.؟ لماذا؟

امنة: (بمرارة)هو.. يأمرني ببيعه..

سمر: (بدهشة) يأمرك..

امنة: وباشد الوان الالحاح والاصرار.

سمر: ارفضي.. لا تطيعيه..

أمنة: (بضعف شديد) لا.. لا استطيع

سمر: ماذا تعنين لا استطيع؟ لا بد ان ترفضي.

امنة: انه.. انه.. في حاجة ماسة إلى.. ثمنه..

سمر: آها.. ها هي الحكاية.. اذن.

امنة: ما كادت كلمة البيع تطرق اذنه.. حتى تعلق بها بكل جوارحه. واغلق عليـه ذهنه.. مهملا كل ما عداها.. كأن هبة من السماء هبطت عليه.. دون توقع ولا رجاء..

سمر: و.. وانت؟

امنة: انا؟.. ماذا بي؟

سمر: اين تذهبين؟ هل يلقى بك في الشارع؟ كمولي الحنون هذا!!

امنة: (بحزن) يبدو انه ارحم من ان يفعل ذلك.. بامه..

سمر: إذن سيشتري.. او يستأجر مسكنا لامه، قريبا منه..

آمنة: لم يعد بشيء من هذا القبيل.

سمر: هاه؟ وماذا قال؟ ينتزعك من بيتك ولا يضمن لك أي مسكن؟ أي بديل؟

آمنة: (كالغائبة عن الوعي) يضمن...

سمر: الحمد لله.. أين؟

آمنة: (بنفس الحالة) في.. بيتي..

سمر: (يتصاعد انفعالها) في.. في بيتك؟ هنا؟ تقصدين.. هذا البيت؟

آمنة: اجل..

سمر: اجل؟ تقولين اجل؟ كيف؟ انا لا افهم؟ لا افهم شيئا البتة..

آمنة: يقول احتفظي بغرفتك واخصميها من الثمن الاجمالي.

سمر: يا له من ابن بار.. من الثمن الإجمالي ها؟ أي كرم.. هذا.. أي كرم؟

امنة: ذلك ما يقوله..

سمر: ولكن ذلك محض هراء.. لا احد يشتري بيتاً بهذه الوصفة الشاذة..

امنة: (باستسلام) علي ان احاول.. علي ان اجرب... حظي..

سمر: تحاولين ماذا؟ تجربين ماذا؟ أي حظ ذلك الذي تجربينه؟ ولماذا ومن اجل... من؟

امنة: من اجل ابني.. وي!! انه ابني.. ابني الوحيد.. وهو في ضنك شديد يرزح تحت ضائقة خانقة.. لقد كان يحدثني والدموع تنهمر من عينيه.. هل اتركه يشحذ؟ هل ادعه يستعطي هذا.. ويسأل ذاك؟

سمر: اسمعي يا آمنة- ليس من حقي أن أتدخل بينك وبين ابنك.. فأنت حرة..

ولكن لو كان لي ابن بهذا القدر من العقوق... لنبذته..

امنة: وي!! تنبذين ابنك؟ ما هذا الكلام.. يا سمر؟

سمر: وذلك أخف.. عقاب.. وارحم جزاء...

امنة: سامحك الله.. يا اختي.. سامحك الله...

سمر: (تنهض بانفعال شديد) او ووه، لو لم تكوني بهذا القدر اللامعقول من.. من الطيبة..

امنة: إلى.. اين؟

سمر: الماء فوق النار.. يفور (تدخل بيتها).

امنة: ما اهون عليك ان تقولي ذلك يا سمر.. ما دام كمال ليس ابنك.. لم تكتوي بالام حمله... ولا احترقت بنيران مخاضاته ووضعه... لو كان ابنك اكنت تقوين على هجره، ناهيك عن نبذه!! (تحوك) انه لا يريدني معه.. ان ذلك ليحز في نفسي كالسكين... ويغص في حلقي.. بل.. بل ويشق في كبدي جرحاً.. لن يندمل.. حسناً.. ثم ماذا؟ هل يتوجب علي الا احبه؟ ان اكرهه؟ وهل من أم يعرف قلبها كراهية وليدها؟ ثم.. ثم.. أي ام تنتظر ثمنا لحبها.. او جزاء من فلذة كبدها؟ لا.. لا يا سمر... لا استطيع ان ارى ابني يغرق تحت الديون، يختنق. واقف اتفرج عليه ان قلبي ينفطر على حاله. سأساعده بكل ما املك.. ببيع البيت وحاجات البيت. ولو اضطررت ان ابيع نفسي في سبيله لما ترددت. ان.. ان زوجته حامل وهي بحاجة إلى تغذية جيدة واطباء ومستشفيات وادوية. وكل ذلك يتطلب اموالاً طائلة. ثم.. ثم.. ان زوجي عاش ومات هنا. في هذا البيت. ما تزال انفاسه تملأ ارجاءه. وما تزال جدرانه تردد صدى ضحكاته وسعاله وصوته.. ليس هيناً علي مغادرة ذكرياتي واطفاء ايامي، والانسلاخ عن تاريخي. وسمر

نفسها وزوجها الطيب والعصفور النطاط. و.. وثمـــة... فــرج.. فــرج.. فرج، الذي يتفقد احوالي دائماً.. ويسأل عني باستمرار.. و... وزوجتـــه الحنون... شفاها الله. كل هؤلاء باتوا اجزاء حية منـــي لا اقــوى علـــى بترها. (تتوقف) لقد.. لقد تعبت من الجلوس ساعات على الارصفــة ابيـــع الخضر. او التردد على اصحاب الدكاكين. سأبيع الحقل مع البيـــت وابيـــع الازرق ايضا... اذ لا.. لاعود بحاجة اليه.. واخلص من اطعامه والعنايـــة به. او سأعطيه لفرج.. الذي طالما رغب فيه. لا سيما بعدما نفقت اتانـــه. انه رجل طيب وقد ارهقه جر العربة الثقيلة وهد كيانه (تتوقـــف) و.. واذا تعذر البيع.. او تأخر؟ لا بد ان افعل شيئاً (تنهض) سأبعث له من مدخراتي ما يعينه، حتى ذلك الحين (تدخل غرفتها. تتناول صندوق مدخراتـــها مـــن خزانة ملابسها. تعد محتوياته.. تضعه جانباً. تختفي داخل البيت)

(تقبل سيدة، في حدود الخمسين مع ابنها يقفان امام البيت).

الابن: اذن.. فهذا هو البيت. انه لا يبدو سيئاً اليس كذلك؟

الام: مظهره من الخارج مقبول (تتأمله) انه على العموم مناسب.

الابن: ولا يبعد كثيرا عن المدرسة. يمكنني قطع المسافة مشيا

الام: ارجو ان يكون ثمنه مناسبا (تطرق الباب) يتبقى لنا قدر من المال نشـــتري قطعة ارض زراعية. نزرعها.. ونستفيد من واردها.

الابن: دائماً ترهقين نفسك. كأن الله لم يخلقك الا للتعب.

ألام: لا أحد يهوى التعب.. يا ولدي.. ولكنها الحاجة..

الابن: لقد عملت وتعبت طيلة سنوات الدراسة. بما فيه الكفاية وفوق الطاقـــة... الان قد تخرجت وتوظفت وآن لك ان ترتاحي.

الام: ارتاح حقاً حين أراك قد كونت نفسك. تزوجت وانجبت.. و.. الحياة صعبة يا

ولدي.. وتزداد صعوبة كل يوم. أين هؤلاء؟ ماذا حل بهم؟ (تطرق البـــاب ثانية) أما من أحد؟

امنة: (صوتها من الداخل) انا قادمة (تخرج ببشاشة) مرحباً بك ســيدتي مرحبــاً بك.. ولدي..

الام: مساء الخير سيدتي.. جئنا من اجل البيت. وارجو ان لا نكون قد تأخرنا.

امنة: انتما اول القادمين. مرحبا بكما. كنت اعد لنفسي قــدح شــاي.. ارجــو ان تشاركاني تفضلا.. تفضلا (وتشير اليهما بالدخول).

الام: شكرا سيدتي.. اننا في الواقع..

امنة: ارجوكما.. الشاي جاهز، تفضلا. ام.. ام تفضلان تناولــه هنــا، فــي دفء الشمس... لحظة- لحظة واحدة (تدخل)

الابن: انها.. امرأة طيبة..

الام: عسى ان يكون الثمن الذي تطلبه مثلها.. او.. أطيب منها.

الابن: طيبة المقابل تحملني على التفاؤل. ذلك ما كنت تقولينه..

الام: (ضاحكة) كنت أقوله، قبل ان ادخل صفقات البيع والشراء هه هه هه..

امنة: (خارجة بعدة الشاي) ضحكتك بشارة خير.. استبشر بها الخير..

الام: ان شاء الله...

امنة: (تصب الشاي) تفضلي، تفضل يا ولدي اتريدان شيئاً مع الشاي؟ لدي جبــن طري طازج.. (تنهض)..

الابن: لا.. يا خالتي... ارجوك...

امنة: انها وجبتي المفضلة.. خاصة مع الخضر..

الام: ارجوك.. لا تزعجي نفسك.. يكفينا الشاي..

امنة: سأنزعج حقاً اذا لم تأكلا معي. (تدخل البيت)...

الابن: يا لها من امرأة... بسيطة وعفوية..

الام: حقا ما اشد طيبتها... قد عاد الي تفاؤلي...

الابن: (ضاحكا) حتى في الصفقات التجارية..

الام: (ضاحكة) حتى في الصفقات التجرية..

الابن: لنأمل الخير... اذن...

امنة: (خارجة بالطعام) تفضلا.. تفضلا لنأكل قبل ان يسد حديث البيع والشراء شهيتنا او يفسدها..

الابن: طيبتك تفتح للشهية كل الابواب.. ولا قوة تفسدها..

امنة: لا تتسرع يا ولدي (بابتسامة) لئلا تضطر إلى تغيير رأيك فيما بعد (ضاحكة) قد تكون لي شروط صعبة.. ما اسمك حفظك الله..

الابن: خالد.. يا خالتي..

امنة: اقر الله بك يا خالد.. عيون امك وابيك.

الام: واحسرتي على ابيه.. لم تكتحل به عيناه..

آمنة: ها..؟

الام: توفي- وخالد جنين في بطني.

امنة: اه.. كان الله في عونك.. ان تهدم عمود البيت كارثة.

الابن: امي اقامت البيت على عاتقها.. وكونتني خير تكوين..

الام: (مغيرة مجرى الحديث) هو الان والحمد لله.. معلم.. تخرج هذا العام..

امنة: (بتقدير) معلم.. اه.. جميل كمال ولدي.. معلم ايضا..

الابن: (بلهفة) هنا.. في الناحية..

امنة: لا.. انه في المدينة..

الابن: اه.. في المدينة؟ لابد ان له خدمة وظيفية طويلة..

امنة: في حدود العشر سنوات. لقد تزوج هناك. وله بنت جميلة..

الام: بنت؟ اه.. يا الهي.. رائع ان يكون للواحدة منا.. حفيدة..

امنة: الامر كما تقولين. وان كان ذلك يشعرنا بانا قد عشنا بما فيه الكفاية.

الام: كل ما اتمناه أن يمد الله في عمري حتى ارى حفيدي..

امنة: سترين باذن الله وسترين احفاد احفادك..

الام: لا.. لا اريد ان ابلغ ارذل العمر.. يكفيني اولاد خالد. اه.. تصور يا خالد كم هو جميل ان تجدني اذ تعود من المدرسة، هنا اما الباب، جالسة على هذه الدكة نفسها، اناغي والاعب ولديك وزوجتك تتهيأ للذهاب إلى عملها.

الابن: (ضاحكا) ما اسرع ما زوجتني.. وجعلتني ابا.. و..

الام: ستتزوج يا ولدي وستنجب بنين وبنات.. موفوري الصحة والجمال.. روحي مفعمة بأمل ان تكون ايامنا الاتية زاخرة بالبهجة والسعادة

امنة: امين.. اللهم.. امين..

الام: بعد وفاة زوجي، سيطرت علي امنية واحدة، ان اهجر المدينة.. واسكن بعيدا عنها، انا وخالد.. ان يكون لي بيت مريح وسط حقل او بستان.. تتوفر فيه الطمأنينة والجيرة الطيبة..

امنة: ارجو من كل قلبي.. ان يحقق لك. بيتي المتواضع.. حلمك المشروع هذا؟ فثمة حقل في باحة الدار. زرعت فيه انواع الخضر. والحمد لله... يفيض محصوله عن حاجتي وحاجة سمر.. فاذهب به إلى السوق. وسمر، التي ستكون جارتك.. لن تجدي أطيب منها..

الام: ومع هذا تتركين هذه الجنينة الحلوة وتذهبين إلى المدينة (ثم).. حقا.. للناس فيما يشتهون مذاهب..

الابن: في سبيل ابنها.. يا امي.. انها تضحي بكل ذلك في سبيل العيش مع ابنها..

الام: لا الومها ابدا، في النهاية ليس لنا، نحن المفجوعات بازواجنا.. غير أولادنا وبناتنا. نلازمهم سنوات حياتنا المتبقية فلا احد.. غيرهم، يحقق لنا الامان والطمانينة.. وينير لنا ايامنا التي توشك ان تنطفيء..

الابن: لن تنطفيء يا امي.. سنظل نمدها بزيت محبتنا وعرق كدنا من اجلكن..

امنة: لافض فوكما.. ما اجمل ما تقولان.. ما احلى كلامكما.. اه.. انه كالشهد في الحلق.. كالشهد.. (تسرح)

الام: (بعد صمت قصير) آ.. آ.. اما نلقي نظرة على البيت..

امنة: (سارحة تخاطب نفسها) ليتني اعرف الكلام مثلها.. ليت ابني يتكلم مثله..

الابن: خالتي.. هل.. (ما تزال سارحة)..

الام: سيدتي..

امنة: ها؟

الام: (بابتسامة) ها؟ اذن.. لم تكوني معنا..

امنة: بل كنت. كنت وما زلت.. وليتني ابقى إلى الابد. و.. و.. ماذا هناك.. هل.. قلت شيئا؟ (الابن والام يتبادلان النظر) عفوا.. عفوا.. لقد سرحت.. قليلا..

الام: (مداعبة) طبعا.. لقاء الاحبة يسحر. كلنا هكذا ضعيفات امام طوفان عواطفنا.. سرعان ما يجرفنا.. ويسلبنا من انفسنا.. ويلقي بنا في فردوس أحلام الحياة مع الاولاد والاحفاد..

الابن: تجدين الان الاستاذ كمال اشد لهفة للقاء امه، ينتظرك على احر من الجمر..

امنة: (بنبرة غريبة) الاستاذ كمال.. لا ينتظر امه..

كلاهما: (بدهشة معا) ها؟ لا؟ لا ينتظرك؟

آمنة: (بالنبرة نفسها) وانا.. لن اذهب اليه

الام: تذهبين الى ابن اخر.. لك..

امنة: ليس لي سواه..

الام: ومع هذا.. لا تذهبين اليه؟

امنة: ا.. اجل..

الام: (بدهشة اشد وسرعة) في هذه الحالة. أين ستذهبين؟

امنة: في.. في (يختنق صوتها بالدموع) في.. هذه.. انا.. انا..

الابن: امي.. لماذا تتوغلين في اسرار الناس. نحن هنا من اجل البيت حسب..

الام: اسفة، يا سيدتي، اسفة جدا. اذا كان سؤالي قد سبب لك أي احراج..

امنة: لا.. انا.. انا.. حريصة ان تعرفا الحقيقة.. انتما بالذات يهمني ان تعرفا الحقيقة.

الام: نحن الامهات، يا ولدي نصغي في ثنايا الكلام المسموع، حين يدور عن فلذات الاكباد، إلى كلام اخر، غير مسموع.. او.. او.. غير معلن..

امنة: و.. سمعت؟ سمعت الكلام الاخر.. غير المقال..

الام: وذلك ما اقلقني واثار فضولي، اذ كيف يكون للواحدة منا ابن له بيت وزوجة واطفال.. و.. و.. (تنظر إلى خالد) لعله يحسن ابي ان اكبح جماح فضولي. اليس كذلك يا خالد؟ (يسكت ويدير وجهه) شباب هذه الايام شديدو الانعزالية، ليسوا مثلنا. انهم من فرط امتلاء اذانهم باصواتهم الشخصية، وهمومهم الفردية، لا يكادون يسمعون الصوت الاخر، ولا يحفلون كثيرا بهموم سواهم..

الابن: انا.. انا في الواقع.. متلهف لمشاهدة البيت حسب..

امنة: (بابتسامة) وعجولون ايضا، شبابنا على عجلة من امرهم..

الابن: الوقت، يا خالتي، الوقت تأخر، اخشى ان تنقطع السيارات و..

امنة: الطريق مأهولة. والسيارات لا تنقطع.. اطمنن يا ولدي (ضاحكة) ولست ناوية ان احتجزكم هنا..

الام: ومع هذا.. يتوجب علينا ان..

امنة: سيدتي الجليلة. لقد دخلت قلبي انت وابنك. وانا لا انافق ولا اتملق. لا سيما بعد ان استجاب قلبك الحنون لنشيج روحي الاخرس. ان قلبا يلتقط دموعا غير مرئية تذرفها روح حزينة.. لجدير بكل ثقة واجلال. لذاته، وليس لاي اعتبار اخر..

الام: يسعدني جدا ما اسمعه. فالعلاقات الانسانية الحقة. هي التي تبنيها الثقة المتبادلة.. قبل كل شيء.

امنة: (بعد صمت) و.. و.. بخصوص البيت.. (تسكت صمت اخر)..

الام: اني مصغية.. يا سيدتي (صمت) كلي اذان.. تفضلي..

امنة: باختصار شديد.. يا اختي (ترتبك) في الحقيقة.. لا ادري كيف اقول..

الام: قولي كيفما تشاءين.. ما دامت جسور الثقة قد امتدت بيننا، فتكلمي كما يحلو لك..

امنة: ثمة.. مسألة خاصة..

الابن: خاصة؟ هل من الضروري ان نعرفها..

امنة: اظن ذلك.. ما دامت تتعلق بالبيت..

الابن: (بروح فكهة ومداعبة) ماذا به؟ مسكون؟

امنة: (بدهشة) مسكون؟ (ثم بمرح) اجل.. وارجو ان.. ان يظل كذلك؟

الابن: (يختض) مـ.. ماذا.. مسكون؟ (يتوجه نحو امه.. المندهشة هي الاخرى)..

امنة: (بهدوء) بروح طيبة (تربت على شعره) روح محبة. ترعاك تسهر عليك

وتحنو.. حنو امك وسهرها..

الابن: انا.. انا.. لا افهم (يرنو إلى امه) مـــ.. ماذا تقصد؟

الام: سيدتي.. هل يمكن.. ان توضحي.. ان.. ان.. كان ممكنا.. (امنـــة تتعــذب، الام تتبادل النظر مع ابنها في حيرة) انا.. انا.. اسفة.. اذا كنت..

امنة: انه.. انه.. امر جارح إلى حد الطعن في الروح. لا اعرف كيف اقولـــه.. لا ادري كيف اوضحه.. (تنقل النظر بينهما كمن تبحث عن عون)

الام: يحرجك وجود خالد؟ (ثم) خالد.. هلا تركتنا بعض الوقت..

الابن: حاضر.. يا امي (يهم بالمغادرة)

امنة: (تتعلق به) لا.. لا.. خالد مثل ابني (ثم) عفوك يا خالد عفوك ارجـــو ان لا أكون قد اسأت اليك...

الابن: على العكس يا خالة انت تشرفينني.. اذ تعتبرينني مثل ابنك.

امنة: لا. يا ولدي. لا.. انت لست مثله. وارجو ان لا تكون مثله (تمسح دمعتها)

الام: ما الامر يا سيدتي.. اثمة ما يوجعك؟

امنة: اتسألينني يا سيدتي. اما كنت تصغين إلى العزف الدامي الصادر من روحـــي المفتتة. الم تسمعي ملء اذان قلبـــك الحنـــون الحســـاس حديـــث قلبـــي المجروح؟

الام: اه.. وكم كنت امل وارجو ان اكون مخطئة. اه.. يا الهي، اذن فـــهو الـــذي (تومىء ايجابا) اه.. يا رحمة السماء الواسعة.. هل يمكن..

الابن: (مضطربا) ماذا هناك؟ لماذا تنتحبان؟ ما الذي جرى..

الام: لا اصدق لا استطيع ان اصدق.. لا اريد ان اصدق.. اه.. اه..

الابن: (يزداد قلقه) ماذا هناك. لماذا لا تخبرني احداكما؟

امنة: انه ولدي يا خالد.. ولدي كمال..

الابن: ماذا به؟ احدث له شيء.. (امنة لا تجيب)..

الام: انه.. لا يريدها

الابن: ها؟

الام: تصور.. يا خالد.. انه لا يريدها معه..

الابن: لا يريد امه؟ كيف؟ باي حق؟ باي حق؟

الام: بلا حق.. بلا أي حق.. لا حق له البتة..

الابن: ولكن.. ولكن.. (عاجزا) في الحقيقة.. لا اعرف ماذا اقول.. اذن.. فـــهو لا يريدك ان تبيعي البيت كذلك..

امنة: بل.. ابيعه. لا بد ان ابيعه.

الام: ررر.. رغما عن ابنك؟

امنة: رغما عني.. رغما عن انفي.

الابن: عفوا.. يا خالتي.. الك بيت اخر؟ او..

امنة: لا. لا املك من حطام الدنيا سوى هذا البيت.

الام: ومع هذا تصرين على بيعه؟

امنة: اجل..

الام: غريب!! هل فكرت بما يؤول اليه مصيرك؟

امنة: ذلك ما اود التفاهم بصدده معكما..

الام: (بدهشة) معنا؟ أأنا وابني؟

امنة: (تومىء ايجابا)..

الابن: ولكن.. ما شأننا نحن..؟

امنة: وحدكما صاحبا الشأن.. وحدكما صاحبا القرار..

كلاهما: كيف؟

امنة: (تتغلب على ترددها) اريد.. ان.. ان ابقى في.. في البيت..

الام: حتى.. بعد بيعه؟

امنة: أ.. اجل..

الام: في هذه الحالة.. لست مضطرة لبيعه..

امنة: (في عجز شديد) بل مضطرة.. ومضطرة جدا..

الام: (متراجعة) حسنا.. حسنا ليس من حقي ان..

امنة: لا اريد اكثر من غرفة واحدة.. غرفتي هذه (تشير اليها)..

الابن: (باستغراب) غرفة؟ غرفة واحدة؟

امنة: انشيء لها اللوازم الاخرى لاحقا. واذا شئتما افتح لــها بابــا.. مســتقلا.. ايضا..

الام: (ساهمة) ليست تلك هي المسألة.. وانما

امنة: لا احسب ان مكوثي يطول.. المقبرة قريبة. جــارتي ســمر وزوجــها و.. وفرج. يتولون الامر كله، وثمة مبلغ. ادخرته لهذا الغرض، لا اريد احــدا يتحمل شيئا من نفقات الدفن.. وما شــابه (الام والابــن واجمــان، يريــم عليهما الصمت، يتبادلان النظر)..

امنة: ومن اجل ذلك اتنازل عن ربع الثمن. او لنقل ثلثه ومن اجلكما.. بوسعي ان اتنازل عن النصف.. اجل.. النصف (صمت) ها.. ما قولكمــا (لا يجيبــان) الطلب.. غريب.. ها؟

الام: في الحقيقة.. انه كذلك.. غريب نوعا ما.

امنة: اعرف. اعرف (ثم) ليس البت فيه هيناً لذا اترك لكما حرية بحثه كما يــووق لكما، يوما.. يومين.. عشرة ايام.. واعدكما ان لا اعطي كلمتــي لاحــد.. حتى تقررا.. ما تشاءان.

الام: لا.. احسبنا بحاجة إلى كل هذه المدة.. فاننا..

امنة: على اية حال ساكون في الداخل ابحثا الامر كما تريدان. وقررا بشـــأنه مـــا ترغبان (تحمل عدة الشاي) وتاكدا ان قراركما، ايا كان، لـــن يقلـل مـــن محبتي واجلالي.. لكما.. (تدخل)..

(يطبق عليهما صمت، احدهما يتطلع في وجه الاخر)..

الام: ها؟ ماذا ترى؟

الابن: عرضها كريم.. جدا..

الام: (ساهمة) فعلا..

الابن: ومن شأنه ان يوفر لك المال الذي تحتاجين اليه.. في..

الام: ولكني لا آمن جانب ابنها..

الابن: وما شأننا بابنها. ابنها هناك. في المدينة، نحن هنا..

الام: ان ابنا يعامل أمه على ذلك النحو.. يمكن ان يفعل كل شيء وبكل النـــاس.. ان.. ان قلبي غير مطمئن.. يا خالد.. يا ولدي..

الابن: اذن؟

ألام: لا ادري.. انا.. انا.. حائرة، لا أستطيع ان اقرر..

الابن: لنؤجل الأمر.. يوماً او يومين.. كما اقترحت..

الام: وندعها تنتظر طيلة هذه المدة؟ انها لقسوة ما بعدها قسوة ان تـــترك احـــداً على نار الانتظار. وهذه السيدة بالذات لا تستحق ذلك..

الابن: و العمل؟

الام: علينا ان نحسم الامر الآن.. وباسرع ما يمكن..

الابن: ولكن كيف.. لا استطيع.. انا الاخر. لا استطيع.. لتقرري انت.

الام: (بعد تفكير) اراني مضطرة إلى عدم القبول..

الابن: الرفض؟ اه.. ستكون صدمة كبيرة.. يتفطر لها قلبها المجروح. فقد احبتنا المرأة من كل قلبها..

الام: مثلما احببناها..

الابن: كيف نواجهها؟ ماذا نقول لها؟

الام: اه.. تلك مشكلة حقا.. لم نحسب لها حسابا.. كيف (تكلمه) اسمع يا خالد..

الابن: نعم.. يا امي..

الام: لنكتب لها رسالة..

الابن: (غير مقتنع) رسالة؟ أنجزي تلك المشاعر الانسانية، الجياشة الدافئة، بورقة جامدة، وبضع كلمات باردة..؟

الام: ليس امامنا.. سبيل اخر.. سيكون لاي مواجهة وقع اليم عليها..

الابن:عليها؟ ام.. علينا..

الام: عليها.. وعلينا..

الابن: (كمن يخاطب نفسه) هي ستواجه الالم وتعيشه في كل الاحوال، بينما نحن.. سنفر منه.. (ثم) ماذا اقول لها؟

الام: هل أعلمك ماذا تقول لها. الست معلما؟ الم تصبح معلما؟

الابن: ذهني يابس.. خال تماما، معطل عن كل فعالية..

الام: حسنا.. حسنا– اكتب.. قل لها سيدتي الكريمة. خالتي العزيزة (تسكت. تفكر.. تتطلع نحو السماء. بينما الابن ينغمر فجأة في الكتابة.. متدفقاً غير مبال بها. تستمر الام)، اننا في غاية الاسى والاسف اذ نرانا مضطرين.. إلى.. إلى.. (ثم) إلى ماذا يا خالد؟ ساعدني قل لي (تتطلع نحوه.. تراه يكتب بلا توقف تصمت.. ترنو اليه.. خالد يستمر في الكتابة مخفيا وجهه عن امه ينهي الرسالته.

(يطويها. يتلفت هنا وهناك.. حائرا.. لا يدري أين يضعها)

الام: هاتها.. يا ولدي (تضعها تحت عدة الحياكة) سوف ابتهل إلى الله ليل نـهار.. ان يصلح ما بينك وبين ابنك.. ويعود اليك نادماً.. مستغفرا.. فيسعد بك وتسعدين به.. ايتها الأخت الكريمة..

(يغادران، بعد فترة مناسبة، تخرج آمنة.. بادية القلق والترقب)..

امنة: (تتطلع هنا.. وهناك.. اذ لا تراهما تنتكس شاعرة بالإحباط) اه.. لقد.. ذهبا.. هكذا بلا كلمة.. (تجلس) اذن لم يوافقا (تتناول عدة الحياكة تسقط الورقة، تتناولها) ما هذه الورقة، رسالة؟ هل تركا لي رسالة؟ يا عيني ..ليت سمير يعود بسرعة ليقرأها. (تخرج سمر بسلة ملابس مغسولة، تنشرها على الحبال) هل رأيتهما يا سمر؟

سمر: من؟

امنة: ام وابنها.. لم ار اطيب منهما ولا ارق. كانا هنا من اجل البيت..

سمر: ها؟ هل وافقا على شرائه؟

امنة: لا.. لم يوافقا.. ولهذا السبب تركا لي رسالة..

سمر: هل عاينا البيت بصورة دقيقة..

امنة: لم يتخطيا عتبة الباب..

سمر: لابد انك صدمتهما بشرطك..

امنة: لكي.. لكي. يكونا على بينة..

سمر: غلط، يا آمنة، غلط. كان ينبغي ان تدعيهما يتفحصان البيت اولا

امنة: (باهتمام) اكان ذلك يغير شيئا؟

سمر: بل كل شيء فالمشتري بعد ان يطلع على مواصفات البيت ومزاياه، يكون اكثر استعدادا للموافقة..

امنة: يا خسارة.. كانا في منتهى التهذيب والرقة.. كأنهما كائنان سماويان (ثـــم) لولا حاجة الولد إلى المال.. لرجوتهما ان يسكنا معي بلا مقابل..

سمر: ما اعجب امرك يا امنة. اناس كل معرفتك بهم بضع دقائق و..

امنة: لا اظنني احظى.. بافضل منهما.. ولا حتى بمثلهما.. (ثم) باتت الوحدة تثقل علي يا سمر ولا سيما في الليل، الذي يبدو كأن الـــف روح تنفتـــح فيـــه ليطول إلى ما لا نهاية..

سمر: اذا كانت تلك رغبتك.. يكفي ان تعلني عنها وسيأتيك العشرات..

امنة: وما قيمة رغبتي، وانا مغلولة اليدين، مسلوبة الارادة.. غير قـــادرة علـــى تنفيذ ما ارغب فيه واريد (سمر تحمل سلتها التي فرغت.. تدخـــل، امنـــة تتأمل الورقة) خط جميل مثل صاحبه.. مثل خط سمير. ترى هل ثمة علاقة بين جمال الروح وجمال الخط؟ ما هذا؟ (تعرض الورقة للضوء) ثمة كلمـــة مموهة.. كأن قطرة ماء سقطت عليها.. اهو اثر دمعة نزولت من عينـــي، دون ان اشعر؟ (تتحسس عينيها) اعرف ان في قعر عيني نبعـــاً للدمـــع لا ينضب، يسيح مدراراً لادنى سبب. ولكن عيني يا بستان. فمن ابن جـــاءت الدمعة؟ (تفكر) اه انها منه.. او منها.. لا بد ان تكون من أحدهما.. قطعـــا انها منهما (تقبل الورقة) اه يا عيني عليكما (تلثم الورقة.. تخفيـــها فـــي صدرها. تنهمك في الحياكة. سارحة الذهن تلف نفسها بالبطانية المفروشة على الدكة. سارحة الذهن. بعد فترة وجيزة تسقط رأســـها علـــى جذعـــها تتوقف يداها.. صوت سيارة مسرعة. توقف مفـــاجيء. تعيـــط الفرامـــل. صوت السيارة عائدة إلى الوراء. توقف اخر. صوت فتح البـــاب وغلقـــه. يتقدم من البيت شاب دون الثلاثين، في اناقـــة مفرطـــة. يداعـــب مفـــاتيح سيارته)

الشاب: دار للبيع؟ هنا؟ قرب مزرعتي (يتطلع هنا وهناك) عش مثالي، بعيد عـــن عيون الفضوليين وانوف المتطفلين، لا حسيب ولا رقيب. منتـــهى الامـــان والاطمئنان (يقرأ) تتوفر فيها كل اسباب الراحة.. الله! الله! هائل! (بـــنزق) تقحم يا اسد.. انه يوم سعدك (يطرق الباب. يفاجـــأ بوجـــود امنـــة التـــي تستوي جالسة) انا اسد. لا. لا تفزعي. اسمي اسد (يقهقه)

امنة: مساء الخير. يبدو ان النوم غافلني.. عفوا..

الشاب: (باستعلاء) انت صاحبة هذا الاعلان الغريب؟

امنة: الغريب؟ افيه خطأ ما؟

الشاب: على الضد. انه على المستوى التجاري. اعلان جذاب. ولا ســيما عبـــارة تتوفر فيها كل اسباب الراحة. هل تتوفر فيها اسباب الراحة فعـــلا. ام ان.. الامر.. لا يعدو.. كذبة.. او.. مصيدة؟

امنة: (باستياء) كذبة؟ مصيدة؟ لماذا تتصور الامر كذلك.؟

الشاب: لان كل الاعلانات التجارية على هذا النحو. تســـعة اعشـــارها كـــذب و.. العشر الباقي تحوم حوله الشكوك..

امنة: ليست كل اصابعك سواء..

الشاب: انا ادير اكثر من مكتـــب للدعايـــة والاعـــلان ادرى النـــاس بالاعلانـــات وحقيقتها.

امنة: لا تجعل نفسك مقياسا لسائر الناس. ولا اعلاناتك مثالا لكل الاعلانات.

الشاب: (مفاجأ بردها) ها؟ (تخرج سمر بسلتها. اذ ترى الشاب تتوقف)

امنة: لو كنت مكانك لعاينت البيت جيدا. وتفحصته من كل النواحي اولا.

الشاب: (متراجعا) انا في الحقيقة يهمني من البيت قربـــه مـــن المزرعـــة التـــي اشتريتها قبل ايام.. ثم .. ثم.. مسألة الراحة.

امنة: من حقك ان تتأكد من كل شيء (تشير إلى الباب المفتوح) تفضل يا ولـــدي تفضل (يدخل الشاب تقبل سمر نحوها)

سمر: لقد وقعت على صيد ثمين.

امنة: (باستغراب) صيد؟

سمر: هل رأيت سيارته العجيبة. هل رايت اناقته الغريبة.. (تشمم) كأنـــه خـــارج لتوه من بحر من العطور.. ما يزال المكان عابقا بشذاها. لا شك انه مـــن اولئك الذين لم يعانوا شظف العيش ولا ذاقوا مرارته..

امنة: وهل من احد لم يذق مرارة العيش؟

سمر: هذا (تشير إلى الداخل) هذا وانماطه. انه من الشباب الذين وجدوا انفســـهم فجأة متربعين فوق اكوام من الامـــوال والعقـــارات.. ممتطيـــن ســـيارات فارهة.. دون ان يسفحوا قطرة عرق واحدة.

امنة: انه.. انه.. يتعامل باستعلاء.. و..

سمر: كلهم هكذا! هؤلاء الطارئون على النعمة! غطرسة وخيلاء ولكن لا تحملـــي هما. سيشتري البيت وبالشروط التي تريدين. ما دام قد اشـــترى مزرعـــة هنا..

امنة: تدرين. انا ارجو في قرارة نفسي ان لا يروق له البيت..

سمر: (بدهشة) هل هذا معقول؟ لماذا؟

امنة: انه مثلما تقولين.. متغطرس وينظر إلى الاخرين باستصغار.. و..

سمر: ليكن ما يكون.. ما شأنك به؟ هل تنوين مصاهرته؟ المهم ان يدفع الثمـــن الذي تطلبين. ويرضى ببقائك في البيت (ثم) لا تفرطي بـــه يـــا امنـــة ان مشترين من هذا النوع لا يفدون عليك كل يوم.. ارجو ان لا تكونـــي قـــد صفعته بشرطك..

امنة: صفعته (تضحك) لا عملت بنصيحتك. اجلت الصفعة إلى ما بعد المعاينة.

سمر: وسوف يتقبلها صاغرا لانه لن يجد في المنطقة كلها بيتا اخرا قريبا من مزرعته (تحمل سلتها الفارغة) ها.. وثمة الهاتف، الذي سيكون في مسيس الحاجة اليه لادارة شؤون مزرعته (تتوجه نحو بيتها. تتوقف) ها.. وثمة نصيحة اخرى يا امنة لا تتساهلي معه في الثمن

امنة: لقد بت تتحدثين على نحو غريب. بماذا تفكرين يا سمر..؟

سمر: (تعود اليها) افكر بضرب عصفورين بحجر واحد.. (تضحك).. لك عصفور.. ولي عصفور.

امنة: لا افهم.. لا افهم شيئا.

سمر: انت تقدمين لكمال المال الذي يريد. وانا احقق امنيتي ببقائك عندي.

امنة: اه.. يا عيني.. يا سمر (ثم) الحق اقول يا سمر.. بعدما راح ذلك الحمام الوديع وامه.. لم اعد متحمسة لاحد..

سمر: الحمام قد طار يا امنة طار. بات لزاما عليك.. ان تمسكي بـ الغراب (تدخل)

امنة: الغراب؟ (تهز رأسها بدهشة)..

الشاب: (خارجا) كالزوبْعة كل اسباب الراحة؟ ها كل الاسباب لا بعضها..؟ ولا حتى نصفها.. انما كلها دفعة واحدة..

امنة: ماذا بك يا ولدي؟ ماذا جرى لك؟

الشاب: أين اسباب الراحة؟ أين سبب واجد من اسباب الراحة في البيت كله؟

امنة: ما الذي ينقص البيت؟ هلا قلت لي ما الذي ينقص البيت؟

الشاب: أين الحمام؟ أين المغاسل.. بل.. بل أين الدبليوسي.؟ ها..

امنة: الد.. ماذا.. ما الذي تقول..

الشاب: (مستمرا في هيجانه) هل في العالم كله، حتى في مجاهل افريقيا.. بيـــت.. بدون دبليوسي..

امنة: على مهلك، يا ولدي على مهلك. لماذا لا تتكلم مثلنا كي افهمك. ما هذا مـــا هو هذا الشيء الذي تفتقده؟ ما هو هذا الديوسي.. او لا أدري.. ماذا..

الشاب: الدبل يوسي. يعني التواليت.. التو..ا.. ليت.

امنة: سامحك الله.. هل فهمت الاولى.. حتى تقذفني بالثانية.

الشاب: اه.. يا الهي.. كيف اقول كيف اتكلم..؟

امنة: قل مثلنا يا ولدي.. تكلم مثلنا..

الشاب: (بفراغ صبر) المرحاض.. يا سيدتي المرحاض..

امنة: تقصد بيت الراحة.. لماذا لم تقل منذ البداية؟ انه موجود.

الشاب: موجود؟ أين ؟ لا رايته.. ولا شممت رائحته..

امنة: (تضحك) تشم رائحته؟ سامحك الله. تتكلم بصورة غريبة حقا؟ انـــه تحـت شجرة التوت في الطرف الايمن من السياج.

الشاب: (بدهشة): تحت شجرة التوت؟ يعني.. يعني.. في العراء.. خـــارج بنـــاء البيت؟

امنة: واين تلقى فضلاتك؟ في غرفة النوم؟

الشاب: ها؟

امنة: انه بيت نظيف. اربعة امتار مربعة. وبارضية من الاسمنت وبالوعة و..

الشاب: (يقاطعها) اوكي.. اوكي.. لنتجاوز هذه المسألة يمكنني معالجتها بنفسي.. والحمام؟ أين الحمام.. اهو في الطرف الايسر، تحت شجرة الجوز مثلا..

امنة: وي! في العراء؟ هل يتعرى احد تحت انظار النـــاس؟ انـــه داخـــل مخـــزن الحبوب وله موقد ممتاز.. يشتعل على النفط..

الشاب: (ساخرا) على النفط؟ يا للروعة!!

امنة: طبعا. ويمكن تشعيله على الحطب ايضا. اذا عز النفط، كما يحدث في فصل الشتاء عادة..

الشاب: على الحطب؟ ها.

امنة: ويغدو جهنم.. وقاك الله نارها.

الشاب: (مخطبا نفسه) لقد استغنى الناس عن الغاز وانتم هنا ما تزالون على النفط والحطب..

امنة: ما الذي تقول؟ اتكلم نفسك؟

الشاب: ما الثمن الذي تطلبين؟

امنة: بخصوص الحمام.. اود ان اوضح شيئا (يصغي) انه مشترك..

الشاب: مشترك.. ما معنى مشترك.. عمومي.. لاهل المنطقة كلهمْ.

امنة: لا. لا. وي انه.. لنا.. ولجارتنا سمر وزوجها.. و.. وحفيدها.

الشاب: (بضيق شديد) فقط؟

امنة: وهناك فرج وزوجته او لنقل فرج وحده فزوجته، يا عيني عليها، مريضة، منذ زمن ولم تعد تأتي.. شفاها الله..

الشاب: كل هؤلاء يغتسلون هنا..

امنة: وارجو.. ان لا يتغير شيء..

الشاب: (ساخرا) لا. لا. بالتأكيد بالتاكيد فهذه كلها من اسباب الراحة.. من المقدسات.. هل يجرؤ احد على مس المقدسات؟! احتفظي ببيتك يا سيدتي، بكل اسباب راحته.. ومقدساته (يخرج)

امنة: (بسرعة) وثمة الهاتف..

الشاب: (يتوقف) ها؟ الهاتف؟ هنا؟ وفي هذا البيت؟

أمنة: اجل هنا- وفي هذا البيت بالذات؟

الشاب: هاتف..؟ حقيقي..؟ ام..

امنة: ام ماذا؟ ماذا تقصد؟

الشاب: لا شيء.. لا شيء.. ولكني.. لم اره.

امنة: ثورتك من اجل المرحاض.. حجبت عنك كل مزايا البيت.. ذاك هو.. (تشير اليه عبر النافذة) في الغرفة..

الشاب: (يتطلع عبر النافذة) و.. يعمل؟ فيه حرارة؟ و..

امنة: طبعا.. ادخل وتاكد بنفسك.. جربه.

الشاب: (تتغير حالته) سيدتي.. انا من اجل الهاتف.. متنازل عن كل اسباب الراحة الاخرى.. (يركض إلى الداخل يتسرع باختباره).

امنة: لقد صدقت سمر.. كاد الرجل يجن..

الشاب: (خارجا) اخبريني يا سيدتي.. هل زوجك مسؤول كبير هنا..

امنة: رحمه الله.. كان كذلك..

الشاب: لابد انه كان كذلك.. و.. و.. ماذا كان رحمه الله.

امنة: مدير تحرير الناحية.. طيلة ثلاثين عاما. تبدل خلالها عشرات مدراء النواحي. بينما ظل هو في منصبه لا احد بوسعه الاستغناء عنه. وحتى بعد احالته على التقاعد لم ينقطعوا عن استشارته واستدعائه إلى المديرية. واذ اقعده المرض ولم يعد بوسعه التردد عليهم.. منحته الحكومة.. هذا الهاتف.. ليبقوا على اتصال معه..

الشاب: افضل شيء فعلته الحكومة، منذ ظهورها في التاريخ. هائل.. هائل.. لا اكاد اصدق انه امتياز.. امتياز حقيقي..

امنة: في كل ارجاء المديرية وضواحيها.. اذ استثنينا بيوت المسؤولين لا، توجد

عشرة بيوت لديهم هواتف..

الشاب: لقد حدثتني نفسي انه يوم سعدي ها.. كم تطلبين يا سيدتي..

امنة: الا.. قل لي.. يا ولدي.. هل انت متزوج؟

الشاب: (منكسا) متزوج؟ لا. اهو شرط اخر من شروط البيع؟

امنة: اذن فالسيدة الوالدة.. سوف تسكن معك.

الشاب: (يقهقه) السيدة الوالدة صاحبة اكبر شركة للدعاية والاعلان في المدينـــة.. هل تترك عملها.. وتسكن معي هنا؟.. ايعقل؟

امنة: ها.. لا.. لا.. بالتأكيد.

الشاب: (بحدة) هل من اسئلة اخرى (امنة تسكت) هيا.. هيا.. هاتها.. قوليها.

امنة: ماذا جرى لك؟ لماذا تصرخ؟

الشاب: لان اسئلتك غريبة شاذة لا علاقة لها بعمليات البيع والشراء.. (صمـــت) الثمن.. قولي كم تريدين (امنة لا تجيب) هل ثمة مشكلة؟

امنة: ابعدنا الله عن المشاكل (ثم) ثمة شرط..

الشاب: شرط؟ شرط اخر؟

امنة: (بسرعة) انه لصالحك.. سأتنازل لك عن ربع الثمن..

الشاب: (يتوقف) ها.. ربع الثمن..

امنة: و.. حتى ثلثه..

الشاب: لماذا؟ لقاء.. ماذا ؟ لا احد يهب شيئا للاشيء.

امنة: اريد.. ان امكث في البيت.

الشاب: كيف؟ باية صفة؟

امنة: بصفة.. بصفة.. اعني.. اعني.. اكون لك.. مثل مثل امك.

الشاب: اترينني طفلا رضيعا، افز من نومي فزعا ابحث عن احضان امي؟ (تـــهم

ان تتكلم، يقاطعها) ولماذا تكونين لي.. مثل امي.. اليس لك ابن؟

امنة: لي..

الشاب: ولماذا لا تكونين امه. هو، اما حقيقية له.

امنة: (بانكسار) انه.. لا.. لا يريدني.

الشاب: ولماذا تعتقدين بأنني اريدك. انا الذي لا اطيق اما واحدة. فـأهرب منـها إلى هذه العزلة. لا حيا كما اهوى.. هل اطيق امين في آن واحد؟

امنة: ارجوك يا ولدي. امسك لسانك عن الاساءة اليها او الي..

الشاب: اسمعي يا بديلة امي..

امنة: لا.. لا تسمعني المزيد.. ارجوك. مع السلامة يا ولدي مع السلامة.

الشاب: (باصرار) انت احدى اثنتين. اما ان تكوني ساذجة جدا. لا تعرفين شـيئا عما يجري في الدنيا... او.. او.. تكوني (يشير إلى رأسه علامة الجنـون) كل اسباب الراحة. قولي كل اسباب التعاسة.. كل اسباب القتل..

امنة: كفى.. كفى.. ارجوك..

الشاب: بشروطك هذه.. انصحك ان تحاولي مع ذلك الحمار المربوط هناك.. لعلـه يرضى ان تعيشي معه في بيت واحد (يخرج بانفعال شديد)

امنة: اذهب. مع السلامة! اذهب عسى الله ان يهديك (تمسح دمعتها) انـهم لا.. لا يريدونني يا كمال.. ماذا افعل؟ ماذا بوسعي ان افعل؟ انت هناك لا تريدنـي معك هنا ايضا لا احد يريدني معه (صوت تشغيل السـيارة بقـوة) حتـى الغراب قد رضيت به.. وهو لم يرض بي.. فماذا افعل.. اه إلى من اتوجـه؟ لمن اتوسل (يدخل سمير في حالة من الغضب).

سمير: من كان هذا المجنون. لقد كاد يسحقني بسياقته الطائشة..

امنة: (تمسح دمعتها) تعال يا ولدي.. تعال.. لقد كنت بانتظارك.. لتقرأ لي هـذه

الرسالة (تعطيه الورقة).

سمير: رسالة؟ من العم كمال؟ (يقرأ) من الحكايات التي كانت امي تقصـــها علـــى كل ليلة.. قبل ان انام. هذه الحكاية التي ما تزال عالقة بذهني: تمكنــــت ام بعدما بذلت المستحيل، ان تزوج ابنها من فتاة احلامه التي عزت وتمنعــب عليه كثيرا فاسكنها في سويداء قلبها. تخدمهما ترعاهما. تظللهما بـــاهداب عينيها.. تحيطهما بالحب والسعادة ولكنهما، بالرغم من ذلــك ضاقــا بـــها ذرعا، وضجرا منها وسمعتهما اكثر من مرة تخططان للتخلص منـــها وذات ليلة قررت هي ان تمكنهما من نفسها. اوت إلى فراشــــها مبكـــرة فدخـــلا عليها فما كان منها الا تظاهرت بالنوم العميق، الشبيه بالموت واستســـلمت لهما. لفاها في بطانية. حملها الابن على ظهره ســـائرا بـــها نحـــو وادي الاسود. تالمت الام كثيرا. اذ وجدت ابنها ينوء تحت ثقلها.. وتمنـــت لـــو كانت اخف. القاها الابن في وادي الاسود وعاد ادراجه. الا ان اسدا هائجـــا ادركه وهجم عليه يريد افتراسه. فانتفضت الام وألقت بنفسها بيـــن فكـــي الأسد.. فجمد الأسد.. خجلا من الام.. واكتفى بان وجه لطمة إلـــى وجـــه الولد.. أسقطته أرضا مضرجا بالدم.. فحملته امه على ظهرها.. وعادت به إلى البيت تعالجه.ز بكل ما عند الام من الحنان والحب.. هذا مـــا تحفظـــه ذاكرتي لن أضيف عليها شيئا.. ولا اقول اكثر.

امنة: وماذا تضيف؟ وماذا تقول يا ولدي خالد.. (تدمع عيناها)..

سمير: (ما يزال يقرأ) ابنك خالد (ثم) خالد؟ حسبت الرسالة من ابنك كمـــال هـــل لديك ابن اخر.. اسمه خالد يا جدتي..

امنة: لدي يا ولدي.. ولدي اخر اسمه سمير.. واخر واخر.. واخرون كثـــيرون.. تعال.. يا ابني.. تعال.. جرب.. بلوزك.. لقد انتهيت منه ..

سمير: (بفرح) حقا؟ حقا؟ الله ما اجمله!! (يقيسه على جسمه).

امنة: ليس اجمل منك.. ولا من خطك.. تعال البسه.. امام المرآة في الغرفة..

(يدخل سمير يرتدي البلوزة بفرح غامر.. يستعرض نفسه امام المرآة بنشوة.. سمر تخرج بسلة ملابسها.. يهرع اليها سمير.. بينما تستلقي امنة على سريرها ممسكة بالرسالة).

سمير: (طائرا نحو جدته) جدتي.. جدتي.. انظري.. ماذا لبست.. انظري..

سمر: الله.. ما اروعه. عاشت يداها.. يا لها من حائكة ماهرة..

سمير ولكنها حزينة.. حزينة جدا لا احد يريدها معه..

سمر: انهم لا يعرفون قيمتها الحقيقية. امنة جوهرة نفيسة من معدن صاف نادر، سيأتي من يقدرها حق قدرها. لا بد ان ياتي (ثم) سمير يا ولدي لقد تاخر الوقت. اسرع خذ العشاء لجدك، قبل ان يهبط الظلام (يدخل سمير البيت ويخرج بقدر الطعام. يركض متباهيا ببلوزه الجديد. سمر تواصل نشر الملابس تتوقف فجاءة) فرج؟ ما الذي جاء به في مثل هذا الوقت؟ قلبي يحدثني ان امرا قد وقع له.. (يدخل فرج يوقف عربته، ينزل منها المسحاة والمعول يرين عليه حزن ثقيل تسرع اليه سمر) ماذا بك يا فرج؟ ما الذي جرى؟ تبدو كأن الدنيا قد انهدت فوق راسك.

فرج: انهدت، يا سمر لقد انهدت فوق راسي..

سمر: اه.. لا تقل.. ان فاطمة.. قد.. قد..

فرج: ماتت يا سمر.. ماتت. راحت إلى الابد (بتهالك) اه.. إلى الابد..

سمر: اه.. يا الهي؟ متى حدث؟ لماذا لم تخبرنا.. اه..يا لها من فاجعة.

فرج: واية فاجعة.. لقد قصمت ظهري.. وانهت امري..

سمر: إلى.. إلى رحمة الله.. لقد تعذبت المسكينة طويلا.. وعانت كثيرا..

فرج: ستة اشهر. ستة اشهر بلا قدرة على الكلام. بلا قدرة على الحركة.. حتـــى في المستشفى يأسوا منها ومن شفائها.. أسلموني اياها فاقدين كل امـــل.. وفي الشهور الاخيرة، كنت بشق الأنفس افتح لها فاها.. لاسقيها المـــاء.. او اطعمها الحساء.. و.. وشرعت احملها على ظهري لقضـــاء حاجتـــها.. على ظهري..

سمر: كان الله في عونك، لقد تعذبت. انت الاخر تعذبت كثيرا.. (فـــرج ينتحـــب) ادع الله ان يغفر لها ولنا..

فرج: الاولى ان ادعو الله.. ان يمحقني. ان يلقي بي في السعير وبئس المصير..

سمر: (بدهشة واستنكار) انت؟. لماذا؟

فرج: لاني شرير.. انا مخلوق شرير..يا سمر.. مليء بالشر..

سمر: (بتوجس مخيف) ماذا فعلت؟ (يسكت) ماذا فعلت يا فرج؟ تكلم يا رجل.

فرج: ما فعلته لن يغفره لي احد.. لن اغفره انا.. لنفسي.. اه.. اه..

سمر: (بخوف) فر.. ج.. هـــ..

فرج: في ساعة مظلمة من ساعات ياسي الاسود.. دعـــوت الله ان.. ان يـــاخذ.. روحها.. ويريحني..

سمر: اه.. ويريحها ايضا.. يا فرج.. يريحها هي اولا.

فرج: يعلم الله.. ذلك ما رجوت. ذلك ما تمنيت.. لان موتـــــها غـــدا ارحـــم مـــن حياتها.. اه.. ما اشقى الحياة.ز حين يصبح الموت ارحم منها..

سمر: ليرحمها الله.. برحمته الواسعة..

فرج: قضيت العمر ادعو لها بالشفاء.. مئات المرات في اليوم ولم يستجب ربـــي. ولكني مرة واحدة. رجوت ان.. ان.. اه.. ما اسرع ما اســـتجاب. اخذهـــا وزرعني بندم. يستغرق العمر كله.. لماذا يا ربي لمـــاذا تـــهمل دعـــوات

الخير.. وتستجيب.. لـــ..

سمر: (مقاطعة) اياك.. يا فرج اياك. ما الذي تهم ان تقول.. هل فقدت عقلك؟

فرج: لقد.. اكل الالم عقلي. وزعزع ايماني فاغفر لي.. يا الهي. زلات لســـاني.. وسفاهات عقلي.. اه.. اه.. (ينتحب بحرقة)

سمر: ربك اعلم بما في الصدور.. هيا.. هيا لا تثقل ضميرك بذنب لم تقترفه.

فرج: ولكني.. اقترفت. حين تمكن منها المرض ولم تعد قادرة على رفـــع يديـــها إلى السماء. وتحريك شفتيها بالدعاء كما كانت تفعل من قبل. اخذت تكتفـي بفتح عينيها.. والتحديق إلى الاعلى بصمت مروع. كان يخيل إلى اذ اراهـا على تلك الحال انها تبتهل إلى الله.. ان يسترد امانته.. وينـــهي عذاباتـــها التي باتت تهدها..

سمر.. من يدري!! لعل ذلك ما كانت ترجوه.. وتتمناه فعلا..

فرج: هكذا فكرت انا الاخر! فتوضأت وتوجهت إلى القبلة، بقلب مفعـــم بالايمـــان والرجاء، ان يرحمها احدى الرحمتين، وفي منتصف الليل صـــدرت منـــها حشرجة قوية. وانتفضت انتفاضة شديدة.. ثم خمدت. فرحت ابكي وابكـــي وابكي.. ينخر في احساس من الداخل ويصرخ ويصرخ بي لقد قتلتـــها يـــا فرج.. انت قاتلها يا فرج (يبكي)

سمر: كفى. كفى.. يا عزيزي. قم معي إلى البيت.. الق في جوفك لقمة.. هيـــا.. هيا.

فرج: لا.. لا ارجوك.. سأختنق. اذا اطبق علي سقف. او احـــاطت بـــي جـــدران. دعيني هنا.. بعض الوقت..

سمر: كما تشاء يا عزيزي، كما تشاء (تعبر السياج. تفتح الباب الموارب. تدخـــل غرفة امنة.. توقظها.. تتحدثان معا..)

فرج: ولكني رجوته احدى الرحمتين.. لم احدد ايهما، هل كانت هي رغبتي الاقوى.. امنيتي الخفية، دون ان افصح عنها. او حتى ان ادري بها.؟ اه.. اه.. أي شيطان لعين القاها في راسي. ليتها لم تمر بخاطري ليتني لم افكر بها.. ولكن الانسان اذا كان قادرا على التحكم في افعاله وسلوكه. فانه عاجز عن التحكم في افكاره وتحديد مسارها او توجيه قيادها.. انها في الراس. الراس المغلقة.. تروح وتجيء، على هواها. تتلاطم كما مياه البحر تتلاطم. ثم.. تندلق تسيل وتتناثر. مثل المياه في القربة.. المثقوبة الاف الثقوب. اه.. انها حكمتك يا رب.. حكمتك.. (تقبل المرأتان. تدخل سمر بيتها بينما تتقدم امنة من فرج الذي ما يزال ينتحب)

امنة: ما هذا فرج؟ لا اصدق ما ارى.. أي رجل انت..؟

فرج: لقد انتهيت يا امنة لم يعد ثمة احد اسمه فرج..

امنة: هل انت وحدك الذي فقدت فاطمة.. انها فقيدتنا جميعا. لو فقد كل واحد عزيزا وفعل ما تفعل لانتهت الدنيا.

فرج: (يهم ان يتكلم. يختنق بالدموع. يسكت..)

امنة: صحيح ان مصابك كبير واليم.. ولكن يتوجب عليك الا تنهار ان تظل واقفا على رجليك.

فرج: لقد تهشم عمودي الفقري.. فكيف اقف. على.. على.. (يختنق بالدموع ثانية.. يكبت اوجاعه بصعوبة.. يتالم بصمت)..

امنة: تالم يا عزيزي.. تالم.. وابك ايضا.. ابك.. كما تشاء.. ولا تحبس دموعك ولكن.. لا تدع اليأس ينخر في روحك.. و.. واصل الحياة.. يا فرج تاكد انك واجد فينا كل عون.. لن ندعك وحدك.. سنقف كلنا إلى جانبك.. هيا. هيا.. يا عزيزي.. لقد جلبت سمر لنا العشاء.. قم يا فرج.. قم اغسل

يديك.. ووجهك.. (داخله بصينية الطعام) تحرك يا فرج.. تحرك يا اخـــي.. لا تظل قابعا تنتحب كامراة.. فقدت بعلها.

امنة: (تتناول ابريق الماء) هيا.. هيا.. دعني اصب الماء على يديك..

فرج: لا. لا. ارجوك (يخطف منها الابريق. يغتسل بينما تهيء الامرأتـــان ســفرة الطعام. يجلس حولها ثلاثتهم.. ياكلون.. كاسرة واحدة..).

امنة: حين مات زوجي.. خيل الي ان الدنيا كلها قد ماتت معه. وان شمسها قـــد اختفت إلى الابد. وان الظلام قد استباح الكون وحل في كل مكان.. ولكنـــي اكتشفت بعد مدة.. ان شيئا من هذا القبيل لم يحدث. وان الدنيا مـــا تـــزال هي الدنيا.. شمسها تشرق كل صباح وتغيب في المساء. وان الليل، حتـــى الليل، ليس ظلاما كله. فدائما ثمة النجوم المتلألئـــة، وثمـــة القمـــر فـــي السماء، وعلى الارض ثمة انوار المحبة المشعة من الناس. مـــن الذيـــن يحيطونني بودهم الخالص. واهتمامهم الحميمـــي الصـــادق. وان الظـــلام يعشعش في روحي وحدي. في مساحة صغيرة جدا. هي انا. بيد اني لـــو تركته او استسلمت له لطغى وساد. واطفا كل ومضة حيـــاة. وخنـــق كـــل نطفة نور.. واحال حتى نـــهاراتي، وليـــس ليـــالي حســـب. إلـــى عتمـــة متواصلة.. فكان لابد ان قاومه.. ان احاربه.. وان ان اهزمه..

سمر: انت بطلة يا امنة.. بطلة حقيقية الكل يشهد لك بذلك.

امنة: ابدا. لم تتطلب مقاومته. بطولة خارقة ولا معركة دامية. لم.. تتطلب ســـوى ان افتح قلبي للناس. احبهم مثلما احبوني ويحبونـنـــي.. وان ادع روحـــي تتعانق مع ارواحهم و.. واواصل حياتي..

فرج: (باعجاب شديد) انت حقا.. مثال المرأة الصامدة.. القوية..

امنة: اليوم، اليوم بالذات، تلقيت صدمة.. لا تقل عن فاجعة فقد زوجي..

سمر: وها انك تواسين غيرك.. اه.. لكم انت رائعة يا امنة..

سمير: (داخلا) جدتي هل ادخل الازرق إلى الدار..

امنة: ادخله يا سمير.. وادخل العربة عربة جدك فرج ايضا.. هل تستطيع؟

سمير: (بحماسة) استطيع يا جدتي.. اربطها بالازرق واعتل ظهره.

فرج: لا. لا. ارجوك لا بد ان أعود إلى البيت.

سمر: لن تذهب إلى أي مكان. ستقضي الليلة عندنا.. او عند امنة.

امنة: وبيتك بالذات لن تذهب اليه.. ينبغي الا تكون الليلة وحدك.

فرج: لا استطيع لابد ان اذهب..

سمر: تذهب إلى أين؟ من تغمض له عين ببيت فاضت فيه روح.. يا فرج؟

فرج: ارجوكما.. انا..

امنة: (مقاطعة) اسمع يا فرج انت لست طفلا كي يتم اقناعك بالحلويات.. او خداعك بالخزعبلات.. ولكن تاكد ان ليلتك ستكون قاسية، وحشية، اذ تقضيها وحدك ومع هذا اذا كنت تصر على عنادك فسأطلب من سمير.. ان يوصلك على ظهر الازرق ولتصحبك السلامة (تنهض تتوجه نحو بيتها)

سمر: (تسرع إلى فرج) أي رجل انت يا فرج؟ اتقوى حقا على خذلان امرأة مثل امنة. هيا.. اذهب معها. انتظري يا امنة. سيشرب فرج الشاي عندك. تحرك يا رجل تحرك.. لقد رجعت امنة من اجلك.. (تعود امنة تمسك بيد فرج يعبران السياج. سمر تتعقبهما بنظرات خاصة. تبتسم لهما. امنة تفتح اضواء الغرفة الثانية، ترتب المنام، يتبعها فرج يجلسان هنيهة على حافة السرير. يتحادثان بمودة. تعود امنة إلى غرفتها. تستلقي على السرير. كذلك يستلقي فرج على سريره. تبقى الغرفتان مضاءتين لمدة. وكل منهما مستلق على ظهره، يبحر في فضاء الغرفة..

تخفت الاضواء تتركز بقعة ضوء على وجه سمر. وهي مـــا تـــزال ترنـــو اليهما. تتسع ابتسامتها.. تبدو كمن تحلم.. ((الازرق مربوط بعربة فـــرج التـــي امتلأت بالزهور ومعالم الزينة. امنة وفرج.. جالســـان فوقـــها وقـــد.. تشـــابكت ايديهما. وهما بملابس الزفاف. سمير يقود العربة. سمر ترقص. الكل في فـــرح غامر. ونشوة عارمة. وهم يغنون بصوت جماعي عذب:

عروســـة والحبـــايب زافيهـــــه

عروسة وكـــل معـــاني الحســـن بيهـــه

حلـــو ثـــوب العـــرس لايـــك عليهـــه

عروســـة والحبـــايب زافيهـــه..الـــخ))